التاريخ: 1997-04-04 رقم العدد: 19710 الصفحة: 1 العمود: 2

العنوان: جميعهم في عنق الزجاجة

الكاتب: سلامة غسان

في آخر نص كتبه عشية وفاته الصيف الماضي، رأى السير انطوني بارسونز، المعتبر عن حق اعمق الديبلوماسيين البريطانيين معرفة بشؤون الشرق الاوسط، ان الدول العربية "تواجه اسرائيل اليوم وقد فقدت خيارها العسكري، بينما وسائل الضغط الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية والمالية التي ما زالت في حوزتها امست الاضعف منذ خمسين عاماً على الاقل" قد يرى البعض في القول محاولة غربية اخرى لاحباطنا ولكن اميل للاعتقاد بأن هذا القول لا يجافي الحقيقة ولا يناقض الواقع. وان كان لا بد من مؤشر جديد الى صحة هذا القول فالارتباك الذي يعتري هذه الايام السياسة الرسمية العربية خير دليل. فبعد اسبوع ونيف على انعقاد "لجنة القدس" في الرباط ما زال الغموض يكتنف تماماً محتوى البيان الصادر عن اجتماعها، اذ تناقلت وسائل الاعلام نسخاً مختلفة عنه، متفاوتة القوة في شجبها لاسرائيل او في دعوتها لوقف التطبيع، وكأن الملتئمين في الرباط، مرة اخرى، طبقوا قول الشاعر المعروف، اذ "خافوا على العار ان يُمحى..."، فأصدروا بياناً لتهدئة خواطر الرأي العام العربي الغاضب، وبياناً آخر لتهدئة روع المستر دنيس روس المتسارع الخطى نحو المغرب لثني المجتمعين عن تبني ما يجيش في صدور مواطنيهم. وجاء الاجتماع الوزاري في القاهرة ليزيد من الارتباك بدلاً من ان ينهيه. كيف لا وامين عام الجامعة يصف الاجتماع بأنه "تاريخي"، بينما وزراء للخارجية يرون فيه مجرّد اجتماع تنفيذي لمقررات قمة العرب الصيف الماضي؟ كيف لا حين يؤكد وزير أن "توصيات "اجتماع القاهرة "ملزمة"، بينما يقنط وزير آخر كان الى جانبه من المجادلات القانونية حول طبيعة تلك "التوصيات"، فيروح يحتكم الى "ضمير الدول العربية "مناشداً اياها تنفيذ "التوصيات"، وكأن للدول، عربية كانت ام اعجمية، "ضمائر واخلاقاً"؟ كيف لا وقد صوّتت على التوصيات دول وتحفظت عنها دول اخرى -التتمة في الصفحة 18 - ونحن أعلم بما يعني التصويت اجمالاً وبما يعني التحفظ ايضاً من رفع للعتب؟ كيف لا وقد دعيت دول حديثة العهد بالتطبيع مع اسرائيل الى تنفيذ "التوصيات" بينما استثنت دول كاملة التطبيع، قديمة العلاقة باسرائيل، نفسها من نطاق تلك التوصيات ومن الدعوة لتنفيذها؟ الارتباك سيد الموقف الرسمي العربي هذه الايام، وما التصريحات العنترية من هنا (وهي كثيرة) ومن هناك (وهي تتكاثر) الا صورة عن ذاك الارتباك، اذ تنطبق على هذه الموجة العنترية الرسمية مقولة كارل ماركس القديمة عن السياسيين حين قال عنهم انهم، كالغرفة الفوتوغرافية السوداء، يصورّون الواقع في كلامهم بدقة، ولكن صورتهم مقلوبة رأساً على عقب. هل تابعتم مثلاً الارتباك المستمر وتصريحات التمني تليها تطمينات النفي وكأن القمة اصبحت حرفاً ممنوعاً او كابوساً يجهد معظم المسؤولين العرب لاشاحته فيعود كالشبح المخيف ليطرق بابهم؟ او انك لا ريب توقفت عند بعض المواقف المعبّرة عن هذا الارتباك الجماعي. فيوسف بن علوي، وزير خارجية عُمان، واكثر الوزراء العرب حماسة للتطبيع حتى ايام قليلة خلت، سحب ممثله التجاري في اسرائيل سراً وباح في اجتماع القاهرة بكلام عجيب عن "نكث اليهود للعهود" منذ ايام الرسول حتى يومنا هذا. ليت الوزير العماني ابدل هذه التعابير الدينية العمومية بكلام سياسي ادق حول المرحلة الجديدة وما تقتضيه منه ومن زملائه! اما حمد بن جاسم، الذي كان بالامس سباقاً في لقاء القادة الاسرائيليين وفي ارساء الدعائم السياسية والغازية للتطبيع الاسرائيلي - الخليجي، فقد تحوّل الى رئيس للجنة القدس القطرية التي حولّت ليالي الدوحة مهرجاناً فلسطينياً يومياً. وترى الارتباك عينه في التناقض الجلي بين تصريحات العاهل المغربي الفضفاضة في افتتاح اجتماع لجنة القدس وتسرّعه في انهاء الاجتماع على بيان غامض قاصر. وترى اشكالاً اخرى من الارتباك في مواقف القاهرة وتونس والرياض، بل قد يصل الارتباك الى حده الاقصى في المبادرات والتصريحات الصادرة في الاسابيع الثلاثة المنصرمة عن القيادة الاردنية من تلك الرسالة الملكية غير المسبوقة لرئيس وزراء اسرائيل، الى زيارة اسرائيل غداة حادثة الباقورة وما جرى خلالها من مراسم وما قيل خلالها من اقوال، الى الاستغناء عن حكومة عبد الكريم الكباريتي بتبادل للرسائل بين الملك والرئيس المقال مما لم نعهده في السابق، الى الرسائل الموجهة لقادة المملكة الامنيين، الى تصريحات الملك على عتبة البيت الابيض بالامس. اما الارتباك الفلسطيني فحدث عنه ولا حرج وانت ترى عرفات يصرخ "واقدساه" في اروقة الجامعة العربية بينما تتأرجح حركة فتح بين قيادة انتفاضة شعبية جديدة او التسليم للاوامر المعطاة للشرطة الفلسطينية. اذا كان هدف نتنياهو اثارة الارتباك بين القادة العرب فهو ولا ريب نجح الى حد كبير اذ نادراً ما رأى القادة العرب انفسهم على هذه الحالة المقلقة من التصلب الاسرائيلي الفج بل المهين، ومن الانحياز الاميركي الواضح والذي بات عصياً على اي تبرير، ومن الغضب الشعبي العربي الذي عاد يطل برأسه بعد طول انتظار. فشريك التسوية الاسرائيلي لا يريد اقل من السيطرة التامة عليها، و"الصديق" الاميركي يخفي ولاءه الاسرائيلي تحت قناع الدفاع عن التسوية، والناس في الشارع، مسيّسين ام لا، لا يحتاجون لطول تفسير كي يفهموا ورطة حكامهم. اننا حقاً في وضع اقليمي يشبه كثيراً ذاك الذي حكم المنطقة غداة هزيمة العرب الاولى عام 1948، وفي الاقل، فنحن في وضع لا يناقض تشخيص السير انطوني بارسونز بل هو يؤكده ويثبته. لم يقل الديبلوماسي العريق كيف يمكن العرب ان يخرجوا من هذا الوهن المقيم ولا من ذلك العجز المضني. والحق ان لا جواب واحداً عن سؤال كهذا. ولكن امضى الاسلحة في مواجهة هذه التحديات هو في داخل الدول العربية نفسها، وبالذات في علاقة الحكّام بشعوبهم، في مدى انبثاقهم كحكّام من صلب تلك الشعوب، وفي مدى تمثيلهم الصادق لمشاعرها وتطلعاتها. فالديموقراطية في الداخل اقوى الاسلحة الديبلوماسية في الخارج. ومهما قيل في نتنياهو فسلاحه الافعل تمنطقه باصوات اكثرية واضحة من مواطنيه اليهود، وعدم سحبهم لذاك التفويض منذ ذلك الحين، رغم عثراته الكثيرة. بمَ يفوّض العرب حكامهم اليوم؟ لنتوقف قليلاً امام سيرة بعض اللاعبين الاقليميين الجدد. ولنبدأ بصاحب حادثة الباقورة بالذات. فأحمد الدقامسة ليس في ما يبدو حزبياً متطرفاً ولا عميلاً قديماً انما هو جندي في جيش مملكة قررت المضي قدماً في السلم. يقول الدقامسة عبر محاميه ان الفتيات الاسرائيليات هزئن به وهو يقيم الصلاة فاستل رشيشاً وقتل سبعاً منهن. عمل فردي طائش كما قيل؟ ربما انه فردي ولكنه يعبّر عن الجو الاقليمي المشحون، والذي يدفع لهذه الاعمال لا الناشطين المتحزبين، المعارضين التقليديين لعملية التسوية ولكل تسوية، بل الرجل العادي، المسالم اجمالاً، غير ذي السوابق ولا العقائد. اما صاحب عملية تل ابيب فهو لا يختلف جوهرياً عن الدقامسة. فقد يكون موسى عبد القادر ابو ضيا او لا يكون عضواً في حركة "حماس"، فلا هو ترك (كغيره من الانتحاريين) رسالة بهذا المعنى، ولا الحركة اعلنت تبنيها الصريح لعمليته التي اودت بحياته، لكن الاسرائيليين تنبهوا لما يعني قيامه بهذه العملية، فهو ليس من المحازبين المراقبين ولا من النشطين الموقوفين تكراراً ولا من المتظاهرين المحترفين. انه اب لاربعة اولاد، لا افكار سياسية معروفة عنده، ولا نشاط سابق، ولد ويعيش في قرية فلسطينية (صوريف) ما زالت تحت السيطرة الامنية الاسرائيلية. بل ان ابا ضيا يعمل منذ اعوام طويلة (سبعة على الاقل) في مؤسسات سياحية اسرائيلية متنقلاً بين الضفة واسرائيل بتصريح اسرائيلي للعمل. فهو بالتالي ينتمي الى فئة الفلسطينيين العاملين مياومة في اسرائيل، وهم عشرات من الآلاف لم تشتك اسرائيل يوماً منهم لانهم بدوا في الاجمال وكأنهم يتمنون حصولهم على التصريح بالعمل لدرجة تجنبهم الشديد لاي عمل سياسي او لأي مشاركة في انتفاضة. لهذا توقف المراقبون الاسرائيليون عند هويته وسيرته وهزئوا بنتنياهو الراكض وراء "حماس" و"الجهاد الاسلامي" بينما اصبح "الخطر على امن اسرائيل" يأتي من مواقع اخرى

اقرب. قبل هاتين العمليتين، كان علينا ان نتوقف لحظة عند هوية الذين تظاهروا في ايلول الماضي ضد فتح النفق اللعين في القدس الشريف، وقد مات منهم العشرات تحت وابل رصاص الجيش الاسرائيلي. كل ما توافر من معلومات يشير الى انهم يمثلون فئات في المجتمع الفلسطيني اوسع بكثير من فئة الشباب المسيّس الذي قاد الانتفاضة الاولى بين 1987 و1993. اذ كان بينهم برجوازيون واصحاب اعمال حرة واعيان، وكان بينهم مسيحيون. ولننظر اليوم ايضاً الى كثافة المشاركة المسيحية في تظاهرات الاعتراض على مستعمرة ابو غنيم، وكثيرون منهم جاؤوا من بيت ساحور وبيت جالا وبيت لحم للتعبير عن سخطهم على قرار يفصل قراهم عن القدس، وهي ايضاً قبلتهم. خارج الاطار الفلسطيني، علينا التوقف ايضاً امام بعض الظواهر الجديدة. في الجنوب اللبناني تبنت حركة "امل" عملية عسكرية في مطلع السنة ضد قافلة اسرائيلية، منبهة الى ان المقاومة للاحتلال ليست محصورة في حزب واحد. وفي الكويت، حيث العداء للفلسطينيين يكاد يوازي كره العراق منذ 1990 ان لم يكن يزيد عنه، رأينا نواباً يبدأون تحركاً شعبياً لنصرة القدس. ومن الكويت نفسها، كما من البحرين ومن ليبيا، صدرت تبرعات مالية كريمة لمصلحة عائلة الجندي الاردني وعائلة الفدائي من صوريف. اما في مصر فاننا نشهد اليوم تحركات شعبية لم نجد مثيلاً لها منذ غزو لبنان عام 1982، بل ان كلام شيخ الازهر الطنطاوي بحدته يستوقف ايضاً، ان تذكرنا، مواقفه السابقة التي اخذت عليه لاعتدالها وهدوئها ان لم يكن لمهادنتها. هذي ظواهر تستدعي النظر فيها ملياً لا لأنها تعبّر عن اتساع رقعة المنتقدين لعملية التسوية فحسب، بل لأنها تشير الى نوع من روح المبادرة ضد اسرائيل في فئات اجتماعية، فلسطينية وعربية، مالت في الفترة الاخيرة، وبالذات منذ مؤتمر مدريد، الى نوع من المهادنة والانتظار. بل ان مزايدة بعض الرسميين العرب تبدو نوعاً من تصحيح متأخر اعتذاري عن اوهام سابقة بمآل التسوية او حتى بامكان حصولها على نحو يرتاح له العرب. لذا قد يكون رئيس الوزراء الاسرائيلي مصيباً في تهكمه من "توصيات" الاجتماع الوزاري العربي، فبيت القصيد لم يلق في اروقة الجامعة، انما تسمعه في عودة الحياء عند من هرول وتراكض، واتساع رقعة المشككين بامكان التفاهم مع اسرائيل الى صلب الطبقات الوسطى بل الغربية الثقافية، والقليلة الانغماس في السياسة. فان انت تجولت في الصحافة العربية لوجدت رسائل القراء اوضح من تصريحات السياسيين، ولقرأت مواقف لفناني مصر اكثر تعبيراً من مقابلات رئيسها. لا ريب ان انصباب النزاع على مسألة القدس بالذات يلهب الخواطر، لأن رفض تهويد المدينة المقدسة لا يحتاج لتفسير مفسر ولا لعظة مبشّر، والناس تنتفض في شأنه بقدر من العفوية ما قبل السياسية. لكن المسألة في الارجح اعمق، بمعنى ان شعوراً واسعاً بالغش ينتاب حالياً مختلف القيادات والاوساط التي كانت منهمكة في عملية التسوية وكأن كثيرين من العرب اجتهدوا وجاهدوا لاقناع انفسهم بضرورة القبول باسرائيل والتفاوض معها والتوصل الى نوع من التفاهم مع مواطنيها. وبينما هم يعملون على جعل انفسهم يقبلون بما تربوا اجيالاً على رفضه، ابرزت اسرائيل، واميركا من ورائها، جشعاً في الارض، واهانة في التعامل، واحتقاراً في المقاربة جعل هؤلاء العرب يخجلون مما كانوا يعملون على قبوله، وهم اليوم يعيشون نوعاً من الشعور بالذنب من مجرّد اعتقادهم ان التسوية مع عدو كهذا كانت بالفعل ممكنة. ازاء هذا التململ المتسع الرقعة، لا يسع الحكومات العربية الاكتفاء بالبيانات الغامضة و"التوصيات" غير الملزمة، بل عليها، مثلها مثل الخصم، ان تتذكر، وتذكر الآخرين، بأن قوتها لا تنبع الا من مدى تمثيلها لمن تدعي تمثيلهم، وهي تنطق باسمهم وتحكمهم. اما ان يتبادل القادة العرب الاتهام بالمسؤولية عن الدرك الذي وصلوا جميعاً اليه، بالتصريح احياناً وبالتلميح دوماً، فلن ينفعهم، اذ ليس بينهم ابطال وليس بينهم خونة وانما هم جميعاً في موقع مؤلم. انهم جميعاً في عنق الزجاجة.